# فضيحة في بوهيميا

آرثر كونان دويل



# فضيحة في بوهيميا

**تأليف**
**آرثر كونان دويل**

ترجمة
زياد إبراهيم

مراجعة
محمد فتحي خضر



# فضيحة في بوهيميا

A Scandal in Bohemia

آرثر كونان دويل

Arthur Conan Doyle

**الناشر مؤسسة هنداوي**
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، وندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
**تليفون:** ١٧٥٣ ٨٣٢٥٢٢ (٠) ٤٤ +
**البريد الإلكتروني:** hindawi@hindawi.org
**الموقع الإلكتروني:** https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

---

تصميم الغلاف: ليلى يسري

الترقيم الدولي: ٩ ١٩٠٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ١٨٩١.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠١٩.

# المحتويات

# الفصل الأول

بالنسبة إلى شيرلوك هولمز، كانت هي دائمًا «المرأة». نادرًا ما سمعتُه يَذكرها بأي اسم آخر. وفي نظره، كانت تتفوَّق على كلِّ بنات جنسها. لم يكن الأمر أنه يشعر بعاطفةٍ كالحب تجاه أيرين أدلر؛ فكل العواطف، وخاصةً الحب، كانت ممقوتة بالنسبة إلى عقله البارد الدقيق المتَّزن على نحوٍ مثير للإعجاب. أعتقد أنه كان أكثر آلات العالم دقة في الاستنتاج والملاحَظة، لكن دور العاشق كان مخالفًا لطبيعته. لم يكن يتحدَّث عن العواطف الرقيقة إلا باستهزاء وسخرية. كانت تلك العواطف أمورًا مُثيرة للإعجاب في نظر المراقب؛ فهي عوامل مساعِدة مُمتازة في كشف الغطاء عن أفعال البشر ودوافعهم، لكن إذا سمح المفكِّر الخبير لهذه العواطف بالتسرُّب إلى مزاجه الحسَّاس والمُنضبِط بدقة، فإن هذا يعني دخول عامل مشتَّت ربما يُلقي بالشك على كل نتائج استنتاجه العقلي. وبالنسبة إلى شخصٍ ذي طبيعة كطبيعته، لن يكون ثمَّة أي صرير في آلة حساسة أو شرخ في عدسة من عدساته القوية أكثر إثارة للاضطراب من عاطفة قوية. ومع ذلك، فإن ثمَّة امرأة وحيدة بالنسبة له، وهي الراحلة أيرين أدلر، كان لها ذِكرى مشوشة بشكل كبير.

لم أرَ هولمز كثيرًا مؤخرًا. كان زواجي قد فرَّق بيننا، وكانت سعادتي المُكتمِلة، والاهتمامات المنصبَّة على المنزل التي تُظهر لرجل يجد نفسه لأول مرة سيدًا للدار، كافيةً تمامًا للاستحواذ على انتباهي بالكامل؛ بينما بقيَ هولمز — الذي يَكره أي شكل من أشكال النظام المُجتمَعي بكلِّ كيانه وروحه البوهيمية — في محل إقامتنا المؤجَّر في شارع بيكر مدفونًا بين كتبه القديمة، مُتنقِّلًا أسبوعًا تلو الآخر بين الكوكايين والطموح، بين النعاس الذي يَجلبه المخدِّر والطاقة العنيفة المميِّزة لطبيعته الحادة. كان — كعادته دائمًا — مُنجذِبًا إلى حدٍّ كبير إلى دراسة الجريمة، وكان يَشغل قدراته العقلية الهائلة وقواه الاستثنائية في الملاحَظة بتتبُّع مفاتيح الجرائم وكشف الألغاز التي كانت الشرطة الرسمية

قد هجرتْها باعتبارها ألغازًا لا أمل في حلِّها. ومن وقتٍ لآخَر، كنتُ أسمع حكايات غامضة عما يقوم به؛ عن استدعائه إلى أوديسا بسبب جريمة قتل تريبوف، وإنهائه للمأساة الفردية للإخوة أتكينسون في ترينكومالي، وأخيرًا عن مهمَّة أنجَزَها بمهارة ونجاح للعائلة المالكة في هولندا. ولكن بخلاف هذه الأدلة على نشاطه، والتي اطَّلَعتُ عليها شأني شأن قراء الصحافة اليومية، لم أكن أعرف إلا القليل عن صديقي وزميلي السابق.

في إحدى الليالي — وكانت ليلة العشرين من مارس عام ١٨٨٨ — كنتُ عائدًا من زيارة مريض (إذ كنتُ قد عدتُ إلى ممارسة الطب المدني) عندما قادَني طريقي إلى شارع بيكر. وبينما مررتُ بالباب الذي لا يُنسى بسهولة، والذي ارتبَطَ لديَّ بأيام خطبتي والأحداث الكئيبة التي واكبَت قضية «دراسة في اللون القرمزي»، سيطرت عليَّ رغبة شديدة في رؤية هولمز مجدَّدًا ومعرفة كيف يَستخدم قواه الاستثنائية. كانت غرف المنزل مضاءة جيدًا وحتى عندما رفعت نظري لأعلى، كنت أستطيع رؤية جسده الطويل النحيل يمرُّ مرتَين مُلقيًا بظل أسود على الستارة. كان يذرع الغرفة بسرعة وحماس، وكان رأسه منكَّسًا لأسفل وكفَّاه مُتشابكين وراء ظهره. كان سلوكه وهيئته بالنسبة إليَّ؛ إذ كنتُ أعرف كل عاداته وحالاته المزاجية، يُفصِحان عما يمرُّ به. لقد عاد إلى العمل مجدَّدًا. لقد استيقظ من أحلامه التي صنَعها المخدر وبدأ السعي وراء مشكلة جديدة بكل حماس. رننتُ جرس الباب واقتِدْتُ إلى الغرفة التي كان جزء منها ملكًا لي فيما مضى.

لم يكن من طبعه الإسراف في التعبير عن عواطفه، ونادرًا ما كان هكذا، لكنه كان سعيدًا برؤيتي على ما أعتقد. ودون التحدُّث بكلمة، وبنظرة حانية، أشار لي أن أجلس على كرسي ذي ذراعين، وألقى إليَّ بعلبة السيجار، وأشار إلى قنينة تحوي مشروبًا كحوليًّا وأخرى للمياه المُكربَنة في زاوية الغرفة، ثم وقف قبالة نيران المدفأة ونظر لي بطريقته الفاحصة المتفردة.

علَّق قائلًا: «الزواج يليق بك. أعتقد يا واطسون أن وزنك قد زاد سبعة أرطال ونصفًا منذ آخر مرة رأيتك فيها.»

رددتُ: «سبعة!»

«بالتأكيد كان يجب أن أفكر قليلًا. أعتقد أنك زدتَ قدرًا ضئيلًا فوق السبعة الأرطال كما أتخيَّل، وعُدتَ إلى العمل مرةً أخرى كما ألاحظ. لم تقل لي إنك تنوي العودة إلى العمل مرة أخرى!»

«كيف عرفت إذن؟»

«إنني أستنتج مما أراه. وكيف لي أن أعرف أنكَ تعرَّضتَ للبلل الشديد مؤخرًا، وأن لديك خادمة هي الأكثر خَرَقًا وإهمالًا؟»

«عزيزي هولمز، هذا لا يُصدَّق! لو أنك عشتَ منذ قرون مضت لكانوا أحرقوك حيًّا بالتأكيد. لقد ذهبتُ بالفعل للتمشية يوم الخميس ورجعتُ إلى المنزل في فوضى مروِّعة، لكني غيَّرت ملابسي. لا يمكنني تخيُّل كيف استنتجتَ هذا. أمَّا بالنسبة إلى ماري جين، فهي عنيدة، وحذَّرتْها زوجتي؛ لكني مرةً أخرى لا يُمكنني أن أفهم كيف عرفت كل هذا.»

ضحك ضحكة مكتومة وفرك كفَّيه الطويلتَين المتوتِّرتَين معًا.

ثم قال: «الأمر هو البساطة نفسها؛ فعيناي تخبراني أنه داخل حذائك الأيسر في المكان الذي تَنعكِس عليه نار المدفأة بالضبط، هناك ستة خدوش مُتوازية تقريبًا على سطح جلد الحذاء. من الواضح أنها نتَجَت عن شخص كشط حوافَّ باطن النعل بإهمال ليتخلَّص من الطين الجاف؛ ومن ثَمَّ، كما ترى، توصلتُ إلى استنتاجي المزدوج، وهو أنك خرجت في طقس سيئ، وأن لديك خادمة سيئة للغاية من خدم لندن تقطع الأحذية. أما بالنسبة إلى عملك، فإذا دخل رجل إلى غرفتي تفوح منه رائحة اليودوفورم وعلى سبابته اليُمنى علامة سوداء من نترات الفضة، بينما يوجد انتفاخ في الجانب الأيمن من قبعته العالية، حيث خبأ سماعته، فسأكون غبيًّا بالفعل إذا لم أستنتج أنه يمارس مهنة الطب.»

لم أَستطِع منْع نفسي من الضحك لبساطة تفسيره لعملية الاستنتاج. قلتُ: «عندما أسمعك وأنت تسرد أسبابك، يبدو الأمر سهلًا للغاية لدرجة أنه يمكنني القيام به بنفسي، رغم أنني أكون مرتبكًا في كل مرة تسرُد فيها استنتاجك إلى أن تذكُر أسبابك. مع أني أعتقد أن عينيَّ تعملان كعينيك تمامًا.»

ردَّ مُشعِلًا سيجارة ومُلقيًا بجسده على كرسي ذي ذراعين: «بالضبط. أنت ترى لكنك لا تلاحظ. الفارق واضح. على سبيل المثال، اعتدتَ رؤية درجات السلم التي تؤدِّي من الردهة إلى هذه الغرفة بشكل متكرِّر.»

«مرارًا وتكرارًا.»

«كم مرة؟»

«مئات المرات.»

«إذًا كم درجة هناك؟»

«كم درجة؟ لا أعرف.»

«تمامًا! لم تُلاحظ، مع أنك رأيتها. هذا ما أقصده. الآن، أنا أعرف أن هناك سبع عشرة درجة لأنني رأيتها ولاحظتها في الوقت نفسه. وبالمناسبة، وبما أنك مُهتم بهذه المشكلات

الصغيرة، وبما أنك تكرَّمت بما يكفي بتسجيل أحداث تجربة أو اثنتين من تجاربي التافهة، ربما يُهمك هذا.» وألقى إليَّ ورقة سميكة ذات لون وردي لتدوين الملاحَظات كانت على الطاولة، ثم قال: «أتت هذه مع آخر مجموعة من البريد. اقرأها بصوت عالٍ.»

كانت الورقة غير مؤرَّخة، وبدون توقيع أو عنوان.

كانت تقول: «سيأتي إليك رجل مساء اليوم في تمام الثامنة إلا ربعًا يُريد استشارتك في مسألة عاجلة للغاية. لقد أظهرتْ خدماتك لإحدى العائلات المالكة في أوروبا أنك شخص ربما يُمكِن الوثوق فيه في الأمور ذات الأهمية البالغة. هذا الكلام عنك من كل مكان وصَلنا. كن في غرفتك إذن في الساعة المذكورة ولا تُسئ فهم الأمر إذا كان زائرك يرتدي قناعًا.»

علقتُ قائلًا: «هذا لغزٌ بالفعل. ما الذي يعنيه في ظنك؟»

«ليس لديَّ أيُّ حقائق بعد. من الخطأ الفادح أن تُكوِّن نظرية قبل أن تمتلك أيَّ معطيات؛ إذ يبدأ المرء بدون أن يشعر في لَيِّ الحقائق لتُناسِب النظريات بدلًا من أن يقوم بالعكس. لكن ما الذي يمكنك استنتاجه من الورقة نفسها؟»

فحصت الكتابة بحرص وكذلك الورقة التي كُتِبَت عليها.

قلتُ وأنا أجاهد لتقليد ما يقوم به رفيقي: «أفترض أن الرجل الذي كتبها موسر. لا يُمكن شراء هذا النوع من الورق بأقل من شلنين ونصف للرزمة. إنها صلبة وقوية بشكل غريب.»

«غريب، هذه هي الكلمة التي أبحث عنها. إنها ليست ورقة إنجليزية الصنع على الإطلاق. انظر إليها تحت الضوء.»

فعلتُ ما قاله ورأيت حرف E كبيرًا وحرف g صغيرًا وحرف P وG كبيرَين وt صغيرًا، منسوجة داخل نسيج الورقة.

سألني هولمز: «ما الذي تَستنتجه من هذا؟»

«اسم صانع الورقة بلا شك، أو بالأصح المونوجرام الخاص به.»

«لا أظن هذا. حرفا G وt يرمزان إلى كلمة Gesellschaft الألمانية التي تعني شركة. إنها اختصار معتاد مثل Co. في الإنجليزية. وبالطبع فإن حرف P يشير إلى Papier أي ورق. أما بالنسبة لـ Eg فدعنا نلقِ نظرة على القاموس الجغرافي.» ثم تناول مجلَّدًا ثقيلًا بُنيَّ اللون من أحد الرفوف. «إيجلو. إيجلونيتز. ها هي، إيجريا. إنه بلدٌ يتحدث الألمانية في بوهيميا، لا يَبعُد كثيرًا عن كارلسباد. إنه يُشْتَهر بكونه محل وفاة الجنرال فالنشتاين، كما يضم العديد من مصانع الزجاج والورق. ها ها. ما الذي تستنتجه من هذا يا فتاي؟» لمعت عيناه ونفخ سحابة ضخمة زرقاء من سيجارته شاعرًا بالانتصار.

«أن الورقة مصنوعة في بوهيميا.»

«بالضبط. والرجل الذي كتب الرسالة ألماني. هل لاحظتَ التركيب الغريب للجملة: «هذا الكلام عنك من كل الأنحاء وصلنا»؟ لا يُمكن أن يكون قد كتبها روسي أو فرنسي. إنه ألماني لا يجيد استخدام الأفعال. لذا لا يتبقى لنا إلا اكتشاف ما الذي يريده ألماني يكتب على ورق مصنوع في بوهيميا ويُفضِّل ارتداء الأقنعة على أن يكشف وجهه لنتخلص من شكوكنا.»

وبينما كان يتحدث، سمعنا صوتًا حادًّا لحوافر حصان وصرير إطارات بجانب الرصيف تبعه دق الجرس بشدة. صفَّر هولمز.

«يبدو من الصوت أنهما حصانان.» ثم ألقى نظرة من النافذة، متابعًا: «نعم. مركبة صغيرة أنيقة المنظر يجرُّها حصانان جميلا الشكل، كُلفة كلٍّ منهما مائة وخمسون جنيهًا. سنَحصُد المال الوفير من هذه القضية يا واطسون، إن لم نحصل على شيء آخر أيضًا.»

«أعتقد أن عليَّ الرحيل يا هولمز.»

«إياك يا دكتور. ابقَ كما أنت. أنا ضائع بدون شخص يسجل ما يحدث. ما يواجهنا أمرٌ يعدُّ بأن يكون مثيرًا للاهتمام، وسيكون من المؤسف أن يفوتك.»

«لكن عميلك ...»

«لا تهتم به. ربما أحتاج لمساعدتك وربما يحتاجها كذلك. اجلس في هذا الكرسي يا دكتور وانتبه جيدًا.»

كانت ثمة خطوات صعود مُتثاقلة وبطيئة ثُم توقفت على الفور خارج باب الغرفة، ثُم سمعنا طرقة عالية وحازمة على الباب.

قال هولمز: «تفضل!»

دخل رجل لا يُمكن أن يقلَّ طوله عن مترَين، بينما كان صدره وأطرافه ضخامًا جديرِين بهرقل. كان لباسه فخمًا، لكنها الفخامة التي يَعتبرونها في إنجلترا تنمُّ عن ذوق سيئ. كانت ثمة شرائط ثقيلة من صوف الأستراخان تُزيِّن الكُمين والجانب الأمامي من معطفه المُزدوَج الصدر، بينما كانت تُغطِّي كتفَيه عباءة زرقاء داكنة مبطَّنة بحرير براق ومُثبتة عند الرقبة بدبوس مزخرَف مكوَّن من حجر البريل الكريم البراق. كان يَرتدي حذاءً طويل الرقبة يصل إلى منتصف ربلة الساق، وكان مزخرفًا من قمته بفراء بُني فاخر؛ مما أكمل الانطباع بالترف الهمَجي الذي ينمُّ عنه مظهره بالكامل. كان يحمل قبعة عريضة في يده، بينما يغطي الجزء العلوي من وجهه حتى عظام الوجنة قناع أسود كان من الواضح

أنه ما زال يضبطه على وجهه؛ لأن يده كانت لا تزال مرفوعة تُعدِّل من وضعه عندما دخل. أما الجزء الأسفل من وجهه فكان ينمُّ عن شخصية قوية؛ إذ كان له شفة غليظة متدلية وذقن طويل مستقيم ينمُّ عن حزم يصل إلى درجة التصلب والعناد.

سأل الرجل بصوت عميق أجشَّ وبلكنة ألمانية ثقيلة: «هل وصلتك رسالتي؟ أخبرتك أنني سآتي للزيارة.» ثم نقل بصره بيننا كأنه لا يَعرِف من تَجِب مخاطبته.

قال هولمز: «اجلس من فضلك. هذا صديقي وزميلي الدكتور واطسون الذي يمتلك الخبرة الكافية ليُساعِدَني بين الحين والآخر في حلِّ قضاياي. مَن الذي أشرُف بمخاطبته؟»

«يُمكنك مخاطبتي بالكونت فون كرام، من نبلاء بوهيميا. أفترض أن هذا الرجل، صديقك، رجل ذو شرف ويتميَّز بالكتمان ويُمكنني الوثوق فيه في مسألة ذات أهمية قصوى. إذا لم يكن الأمر كذلك، أُفضِّل التحدث معك على انفراد.»

نهضتُ لكي أرحل، لكن هولمز أمسكني من رُسْغي ودفعني للجلوس مرة أخرى في الكرسي، وقال: «كلانا أو لا. يُمكنك قول ما تريد لي أمام هذا الرجل.»

هزَّ الكونت كتفَيه العريضتَين ثم قال: «عليَّ البدء إذن بأن تتعهدا لي بالسرية المطلَقة لمدة عامين، وعند انتهاء هذه المدة لن يكون للمسألة أيُّ أهمية. حاليًّا لن يكون من المبالَغة أن نقول إنها مسألة من الأهمية بحيث يمكنها أن تؤثر في التاريخ الأوروبي.»

قال هولمز: «أعدك.»

قلتُ: «وأنا أيضًا.»

تابع زائرنا الغريب: «أتمنى ألا يضايقكما القناع الذي أرتديه؛ فالشخص الرفيع الشأن الذي أعمل لديه يُريد أن يظلَّ رسوله مجهولًا بالنسبة إليكما، وربما يُمكنني أن أعترف لكما الآن أن اللقب الذي قدمتُ به نفسي للتوِّ لا يخصُّني في الواقع.»

ردَّ هولمز بطريقة جافَّة: «كنتُ أعرف هذا.»

أكمل الرجل: «الظروف حسَّاسة للغاية، ويجب اتخاذ كل الاحترازات اللازمة لإخماد ما يمكن أن يُصبِح فضيحة كبرى تُشكِّل تهديدًا خطيرًا لمكانة إحدى العائلات الحاكمة في أوروبا. بصراحة إن الأمر يورِّط عائلة أورمشتاين العظيمة، ورثة عرش بوهيميا.»

دمدم هولمز وهو يجلس على كرسي ويغلق عينَيه: «كنتُ أعرف هذا أيضًا.»

نظر زائرنا، وقد ظهرت عليه الدهشة، إلى الشخص المتراخي المتكاسل الذي وُصف له بلا شك بأنه أكثر محقِّقي أوروبا حيوية وحِدَّة في الفكر. وأعاد هولمز فتح عينَيه مرة أخرى ببطء ونظر إلى عميله العملاق بنفاد صبر.

وقال: «إذا تنازلت جلالتك وقلتَ ما لديك يُمكنني تقديم النصح لك على نحو أفضل.»

انتفض الرجل من كرسيه فجأة وذرع الغرفة ذهابًا وإيابًا في حالة من الاهتياج يتعذَّر التحكُّم فيها. وبحركة تدلُّ على اليأس، رفع القناع عن وجهه وطرحه أرضًا وصاح: «أنت على حق! أنا الملك. لماذا يجب عليَّ إخفاء هذا؟»

ردَّ هولمز بصوت خفيض: «بالفعل، لماذا؟ من قبل أن تتحدَّث جلالتك وأنا أُدرِك أني أخاطب فيلهِلم جوتسريش سيجيسموند فون أورمشتاين، دوق كاسل-فيلشتاين الأكبر ووريث عرش بوهيميا.»

قال زائرنا الغريب وهو يَجلس مرة أخرى ويُمرِّر يده على جبهته البيضاء المرتفعة: «ولكن يُمكنك أن تتفهَّم أنني لم أعتدِ القيام بهذه الأمور بنفسي. لكن الأمر حسَّاس للغاية لدرجة أنه لم يُمكنِّي الوثوق في أي محقق دون أن أضع نفسي تحت إمرته. لقد أتيتُ متخفِّيًا من براغ لأستشيرك.»

قال هولمز وهو يعيد إغلاق عينَيه: «استشرني إذن.»

«الحقائق باختصار هي ما يلي: منذ خمس سنوات، وخلال زيارة طويلة إلى وارسو، تعرفتُ على مُغامِرة شهيرة وهي أيرين أدلر. الاسم مألوف لديك بلا شك.»

دمدم هولمز بدون أن يفتح عينَيه: «ابحث عن اسمها في الدليل الخاص بي يا دكتور.» لسنوات تبنَّى هولمز نظامًا لتلخيص كل الفقرات التي تخص البشر والأشياء، حتى إنه كان من الصعب ذكر موضوع أو شخص ما لا يُمكن إخراج معلومات عنه فورًا. في حالتنا هذه، وجدت سيرتها بين سيرة تخص حاخامًا يهوديًّا، وأخرى تخص قائدًا للأركان كتب دراسة عن أسماك أعماق البحار.

قال هولمز: «دعني أرَ! هممم! وُلِدت في نيوجيرسي عام ١٨٥٨. مغنية كونترالتو! هممم! دار أوبرا لا سكالا! هممم! المغنية الأولى في دار الأوبرا الملَكية في وارسو! نعم! تقاعدَت من الأوبرا! ها! تعيش في لندن! حقًّا! كما أفهم جلالتُك تورطتَ مع هذه الشابة وكتبت لها بعض الرسائل التي يُمكن أن تتسبَّب لك في فضيحة وتُريد استردادها.»

«بالضبط. لكن كيف ...»

«هل تزوجتما سرًّا؟»

«لا.»

«أي أوراق أو شهادات رسمية؟»

«لا.»

«إذن أنا لا أفهم جلالتك. إذا أخرجَت هذه الشابة الرسائل لابتزازك أو أي غرض آخر، فكيف ستُثبِت صحتها؟»

«هناك الخط الخاص بي.»

«زورَتْه.»

«ورق الملاحظات الخاص بي.»

«سرقته.»

«ختمي الخاص.»

«قلدته.»

«صورتي.»

«ابتاعتها.»

«كنا نَظهر فيها معًا.»

«يا إلهي! هذا سيِّئ للغاية! لقد قمت جلالتك بفعل طائش حقًّا.»

«كنتُ مجنونًا، فقدتُ عقلي.»

«لقد أوقعتَ نفسك في موقف خطير للغاية.»

«كنتُ ولي العهد وحسبُ آنذاك، وصغير السن. أنا الآن في الثلاثين من عمري.»

«يجب أن تَسترجعها.»

«حاولْنا وفشلنا.»

«يجب أن تدفع المال يا جلالة الملك. يجب أن تَشتريها.»

«لا تريد بيعها.»

«تُسرَق إذن.»

«قمنا بخمس محاولات. مرتين دفعتُ المال لسارقين لتفتيش ونهب منزلها. ومرة سرقنا أمتعتها أثناء سفرها. ومرتين أخريَن هوجمَت في الطريق. لكن كل هذا لم يسفر عن أي نتيجة.»

«لا يوجد أي دليل على وجود الصورة؟»

«مطلقًا.»

ضحك هولمز ساخرًا: «يا لها من مشكلة بسيطة للغاية.»

ردَّ الملك موبِّخًا: «لكنها أمرٌ خطيرٌ للغاية بالنسبة إليَّ.»

«بالطبع، ولدرجة كبيرة. وما الذي تنوي فعله بهذه الصورة؟»

«تدميري.»

«كيف؟»

«أنا على وشك الزواج.»

«سمعت بهذا.»

«سأتزوج كلوتيلدا لوثمان فون ساكس منينجين، الابنة الثانية لملك اسكندنافيا. لعلَّك تعرف التقاليد الصارمة لعائلتها. هي نفسها الرقة مجسَّدة. وأي لمحة شكٍّ في سلوكي ستُنهي الزواج.»

«وأيرين أدلر؟»

«تُهدِّد بإرسال الصورة إليهم. وستَفعلها. أعلم أنها ستَفعلها. أنت لا تعرفها فهي متحجِّرة القلب. إنها تمتلك وجه أجمل النساء وعزم وإصرار أقوى الرجال. وستَفعل أي شيء لتمنع زواجي بأي امرأة أخرى. أي شيء.»

«هل أنتَ واثق من أنها لم ترسلها بعد؟»

«متأكد.»

«وما الذي يَجعلُك متأكدًا؟»

«لأنها قالت إنها سترسلها يوم إعلان الخِطبة رسميًّا، وهو يوم الإثنين المقبل.»

قال هولمز متثائبًا: «إذن لدينا ثلاثة أيام. هذا جيد جدًّا؛ فلديَّ أمرٌ أو أمران مهمان يجب أن أنظر فيهما حاليًّا. جلالتك بالطبع ستظلُّ مقيمًا في لندن في الوقت الراهن!»

«بالتأكيد. سأنزل في فندق لانجام تحت اسم الكونت فون كرام.»

«سأترك لك برقيةً إذن لأخبرك بما يستجد.»

«من فضلك افعل. سيظلُّ القلق مسيطرًا عليَّ كليًّا.»

«وبالنسبة إلى المال؟»

«لديك تفويض كامل.»

«مُطلَق؟»

«أنا على استعداد للتنازل عن إحدى مقاطعات مملكتي مقابل استرجاع هذه الصورة.»

«وبالنسبة إلى النفقات الحالية؟»

أخرج الملك حقيبة ثقيلة من جلد الشمواه كان يُخبِّئها تحت عباءته ووضعها فوق الطاولة، قائلًا: «هذه الحقيبة تحوي ثلاثمائة جنيه ذهبي وسبعمائة جنيه ورقي.»

كتب هولمز بسرعة إيصالًا بالاستلام على ورقة من دفتر ملاحظاته وسلَّمه إياه.

«وعنوان الآنسة؟»

«نُزُل بريوني، جادة سيربنتاين، حي سان جونز وود.»

دوَّن هولمز ما يقوله قبل أن يقول: «سؤال آخر: هل كانت الصورة كبيرة؟»

«نعم.»

«طابت ليلتك إذن يا جلالة الملك. أثق بأنه قريبًا سيكون لدينا أخبار تسرك. تصبح على خير. واطسون ...» ثم أضاف بينما يعلو صوت دوران عجلات المركبة في الشارع: «فلتتفضَّل بالاتصال بي غدًا في تمام الثالثة بعد الظهر، أودُّ أن أتحدث معك في هذا الأمر البسيط.»

# الفصل الثاني

في تمام الثالثة كنت في شارع بيكر، لكن هولمز لم يكن قد عاد بعد. أخبرتني صاحبة المنزل أنه ترك المنزل بعد الثامنة صباحًا بقليل. وعلى الرغم من ذلك، جلست بجانب المدفأة عازمًا على انتظاره مهما طال غيابه. كنتُ مهتمًّا بالفعل بالمسألة بشكل كبير؛ لأنها على الرغم من أنها لم تُحِطْ بها ظروف غريبة ومشئومة مثل الجريمتَين اللتَين سجلت أحداثهما بالفعل، فإن طبيعة القضية والمكانة الرفيعة لعميل هولمز منحتاها سمة خاصة بها. وبالفعل، وبعيدًا عن طبيعة التحقيق الذي كان يشغل وقت صديقي، كان ثمة شيء يتعلق بتحكمه البارع في الموقف واستنتاجه الثاقب الفكر جعل من الممتع بالنسبة إليَّ دراسة نظامه في العمل واتباع الطرق السريعة الحَذِقة التي كان يحلُّ بها أكثر الألغاز تعقيدًا. وكنتُ قد اعتدت نجاحه المستمر حتى إن إمكانية فشله لم تَعُد تخطر بذهني.

بينما كانت الساعة تقترب من الرابعة فُتِح الباب ودخل إلى الغرفة سائس خيول أشعث ذو سالفَين طويلَين يبدو عليه السُّكر؛ حيث كان وجهه متورمًا وملابسه مزرية. كنتُ معتادًا على قدرة صديقي المُذهِلة على التنكُّر، واضطررت لتدقيق النظر ثلاث مرات قبل أن أتأكد أنه هو. أومأ برأسه واختفى داخل الغرفة ثم خرج منها بعد خمس دقائق يَرتدي حُلَّة من الصوف، وقد بدا مهندمًا كما اعتاد أن يبدو. وضع هولمز يدَيه في جيبَيه ومدَّ ساقَيه أمام المدفأة وضحك بلا تحفظ لدقائق.

ثم قال: «حسنًا، حقًّا!» ثم عاد ليضحك حتى اختنقَ من كثرة الضحك واضطرَّ للاستلقاء في كرسيه مترنحًا وعاجزًا.

قلت له: «ما الأمر؟»

«الأمر مُضحِك للغاية. أنا متأكد أنك لن تستطيع أن تُخمِّنَ كيف قضيت صباحي أو ما انتهى بي الأمر بالقيام به.»

«لا يمكنني التخيُّل. أعتقد أنك كنت تراقب روتين الآنسة أيرين أدلر، وربما منزلها.»

«صحيح تمامًا، لكن تتمَّة اليوم كانت غير متوقَّعة. لكنني سأخبرك. لقد تركت المنزل بعد الثامنة بقليل من صباح اليوم متنكِّرًا في شخصية سائس خيول عاطل عن العمل. هناك تعاطُف وترابط رائعَين بين سائسي الخيول. حاولِ التنكُّر في زي أحدهم وستعرف كل ما يجب معرفته. لم يمضِ وقت طويل قبل أن أعثُر على نُزُل بريوني. إنه عبارة عن فيلا صغيرة أنيقة من طابقَين بُنيت لتطلَّ مباشرة على الطريق وبها حديقة خلفية. كان هناك قفل من طراز تشاب على الباب. في الجانب الأيمن، كان هناك غرفة جلوس كبيرة مؤثَّثة جيدًا ذات نوافذ طويلة تكاد تصل إلى الأرض تقريبًا مزوَّدة بتلك الأقفال الإنجليزية المُثيرة للضحك التي يمكن لأي طفل أن يفتحها. وفي الخلف، لم يكن هناك أي شيء جدير بالملاحظة فيما عدا نافذة لرواق يُمكن الوصول إليها من أعلى مرآب المركبات. درت حول المنزل وفحصته جيدًا من كل الجهات لكن دون أن ألاحظ أي شيء مثير للاهتمام.

ثم تسكَّعتُ قليلًا في الشارع ووجدت كما توقعت أن هناك إصطبلًا في طريق يمتدُّ بمحاذاة أحد جوانب الحديقة. ساعدت السائسين في الاعتناء بالخيول وحصلتُ في المقابل على بنسين وكأس من الشراب وحفنتَين من التبغ وكل ما أودُّ معرفته من معلومات عن الآنسة أدلر؛ فضلًا عن نصف دستة من سكان الحي لم أكن مهتمًّا البتَّة بهم، لكني كنتُ مجبرًا على الاستماع إلى قصة حياة كل منهم.»

سألتُه: «وماذا عن أيرين أدلر؟»

«حسنًا، لقد لفتت انتباه جميع رجال المنطقة. إنها أجمل فتاة على ظهر الأرض، حسبما يقول كل رجل في إصطبلات جادة سيربنتاين. تعيش حياة هادئة وتُغني في الحفلات، وتخرج في الخامسة من كل يوم وتعود في تمام السابعة لتناول العشاء. نادرًا ما تخرج في أوقات أخرى إلا للغناء. هناك رجل واحد فقط يزورها، لكنه يزورها كثيرًا. رجل أسمر ووسيم وأنيق المظهر، لا يزورها أقل من مرة يوميًّا، وأحيانًا مرتَين، يُدعى السيد جودفري نورتون، من هيئة المعبد الداخلي القانونية. هذه هي ميزة اللجوء إلى سائقي العربات للحصول على الأسرار. فقد أوصلوه لمنزله من جادة سيربنتاين عشرات المرات ويعرفون كل شيء عنه. وبعدما استمعت إلى كل ما لديهم، بدأتُ التمشي ذهابًا وإيابًا بالقرب من نُزُل بريوني مرة أخرى معيدًا التفكير فيما سأقوم به.

كان من الواضح أن جودفري نورتون عامل مُهم في الأمر. كان يعمل محاميًا وهذا أمرٌ ينذر بسوء. ما نوع العلاقة بينهما؟ وما الهدف من زياراته المتكرِّرة؟ هل كانت عميلة

لديه أم صديقته أم عشيقته؟ لو كانت عميلة لديه، فربما ائتمنته على الصورة. إذا كانت صديقته، فسيَضعُف هذا الاحتمال. كان هذ الأمر يتوقَّف عليه تحديد إذا ما كنت سأستمر في فحص نُزُل بريوني أم سأُحيل اهتمامي إلى ديوان الرجل في المعبد. كان أمرًا حسَّاسًا من شأنه توسيع دائرة تحقيقي. أخشى أنني أضجرتك بهذه التفاصيل، لكن يجب أن تعرف الصعوبات القليلة التي قابلتْني إذا كنتَ تريد أن تفهم الموقف جيدًا.»

قلت: «أنا منتبه تمامًا.»

تابع قائلًا: «بينما كنتُ أفكر في الأمر، وصلَت عربة يجرُّها حصان إلى نُزُل بريوني ونَزَل منها رجل. كان رجلًا وسيمًا بشكل لافت للنظر، أسمر البشرة ذا شارب وأنف معقوف؛ كان من الواضح أنه هو الرجل الذي سمعت عنه. بدا في عجلة من أمره وصرخ في سائق العربة أن ينتظره وتجاوز الخادمة التي فتحت الباب كمن يدخل منزله الخاص.

مكث في المنزل نصف ساعة، واستطعت أن ألمحه من خلال نوافذ غرفة الجلوس، حيث كان يذرعها ذهابًا وإيابًا ويتحدَّث بانفعال محركًا ذراعَيه. بالطبع لم أقدر على رؤيتها. خرَج بعد قليل وكان مُهتاجًا أكثر من ذي قبل. وبينما كان يركب العربة، أخرج ساعة ذهبية من جيبِه ونظر فيها بتمعُّن ثم صرخ في السائق: «اذهب إلى جروس وهانكي في شارع ريجينت ثم إلى كنيسة سانتا مونيكا في طريق إيدجوير. قُدْ كأن الشيطان يُطاردك! لك نصف جنيه إذا أوصلتَني خلال عشرين دقيقة.»

وانطلَقا بعيدًا، وبينما كنت أتساءل هل كان عليَّ أن أتبعه ظهرت عربة صغيرة فاخرة ذات أربع عجلات عبر الشارع، وكان معطف السائق نصف مزرَّر ورابطة عنقه ترجع للوراء تحت أذنه بينما كانت أربطة لجام الحصان تبرز من مرابطها. لم تَكد تتوقَّف العربة أمام المنزل حتى انطلقت أيرين بسرعة خاطفة إلى داخل العربة. لمحتُها للحظة لكني أدركتُ أنها امرأة فاتنة ذات جمال قد يجعل الرجل يُضحِّي بنفسه من أجله.

قالت للسائق: «كنيسة سانتا مونيكا يا جون، ولك نصف جنيه ذهبي لو وصلتُ هناك في عشرين دقيقة.»

كانت فرصة لا تعوَّض يا واطسون. كنت أفكر إنْ كان عليَّ الدخول إلى البيت أو التعلق بالعربة عندما ظهرت عرَبة في الشارع. نظر السائق مرتين لحالتي الرثَّة لكني قفزت داخل العربة قبل أن يَعترض، وقلت له: «اذهب إلى كنيسة سانتا مونيكا ولك نصف جنيه إذا وصلنا في عشرين دقيقة.» كان يفصلنا عن تمام الثانية عشرة خمس وعشرون دقيقة، وبالطبع كان ما هو وشيك واضحًا بما يكفي.

قاد السائق بسرعة، ولا أظن أنني ركبت عربة أسرع من هذه من قبل، لكن الآخرين كانوا قد وصلوا قبلنا. كانت عربة الأجرة والعربة الأخرى الفاخرة بأحصنتهما التي تنفث البخار من مناخيرها تقفان أمام الباب عندما وصلت. دفعت الأجرة للرجل وهُرعت داخل الكنيسة. لم يكن أحد بالداخل سوى الاثنَين اللذَين أتتبَّعهما وقسٍّ يرتدي الرداء الكهنوتي الأبيض، بدا كأنه يحتج على ما يقولانه. كان الثلاثة مجتمِعين عند المذبح. أخذت أتسكَّع بجانب صف الكراسي كأي متسكع يدخل الكنيسة. فجأة استدار الثلاثة ليواجهوني وركض جودفري بأقصى قوته تجاهي.

قال جودفري: «حمدًا لله! أنت ستفي بالغرض! تعالَ!»

سألته: «ماذا يحدث؟»

ردَّ قائلًا: «تعالَ يا رجل تعالَ! ثلاث دقائق فقط وإلا لن يكون الأمر قانونيًّا.»

سحبَني إلى المذبح وقبل أن أدرك ما يحدث وجدت نفسي أتمتم بكلمات تُهمَس في أذني وأشهَد على أشياء لا أعرف عنها شيئًا، وأساعد بشكل عامٍّ في إتمام ارتباط العَزباء أيرين بالأعزب جودفري. تمَّ كل شيء في لحظات وأخذ الرجل يَشكُرني من جانب، وشكرتني زوجته من الجانب الآخر، بينما وقف القس أمامي مُبتسمًا. كنتُ في أغرب المواقف التي وجدت نفسي فيها على الإطلاق، وكان تذكُّري له هو ما دفعني للضحك الآن. يبدو أنه كان هناك قدر من عدم الرسمية يتعلق بزواجهما، وأن القس كان رافضًا تمامًا تزويجهما بدون شاهد، وكان ظهوري مؤاتيًا وأنقذ العروس من الخروج للشوارع والبحث عن إشبين. أعطتْني العروس نصف جنيه ذهبيًّا وأنوي ارتداءه في سلسلة الساعة الخاصة بي كتذكار.»

قلتُ: «هذا تحوُّل غير متوقَّع في سير الأمور. ماذا حدث بعد ذلك؟»

«وجدتُ أن خططي عرضة لتهديد فعلي. كان الأمر يبدو كما لو كان الزوجان سيُسافران على الفور لذا كان من الضروري أن يتصرَّفا بسرعة. لكنهما افترَقا عندما وصَلا إلى باب الكنيسة، حيث عاد هو إلى المعبد بينما عادَت هي إلى منزلها. وبينما كانت تتركه سمعتُها تقول: «سأذهب إلى الحديقة في الخامسة كالمعتاد.» لم تقل أكثر من هذا. ذهب كلاهما في اتجاه مُختلِف بينما ذهبت أنا لإتمام الترتيبات الخاصة بي.»

«وهي؟»

ردَّ وهو يَقرع الجرس: «تناول اللحم البارد وكأس جعة. لقد انشغلت تمامًا ونسيت الطعام. ومن المرجح أن أكون أكثر انشغالًا هذا المساء. بالمناسبة يا دكتور، سأحتاج إلى تعاونك.»

«سيكون هذا من دواعي سروري.»

«هل تمانع في التحايل على القانون؟»

«كلا البتَّة.»

«هل تخاطر بالاعتقال؟»

«لا بأس، إن كان الأمر يستحق.»

«الأمر يستحقُّ بالفعل.»

«إذن يمكنك الاعتماد عليَّ.»

«كنت متأكدًا من أنه يمكنني الاعتماد عليك.»

«ماذا تريد؟»

«سأُخبرك عندما تحضر السيدة تيرنر الصينية.» ثم قال وهو يبدأ التهام الطعام البسيط الذي أحضرته صاحبة المنزل: «يجب أن أتحدث وأنا أتناول الطعام؛ لأنني لا أمتلك الكثير من الوقت. لقد اقتربتُ من الخامسة الآن. يجب أن نكون في مسرح الأحداث في خلال ساعتين. سترجع الآنسة، أو السيدة، أيرين من جولتها في السابعة. ويجب أن نكون عند نُزُل بريوني لنقابلها.»

«ثُم؟»

«يجب أن تترك هذا لي. لقد رتبتُ بالفعل ما سيحدث. لكن يجب أن أؤكد لك على نقطة ما. يجب ألا تتدخَّل مهما حدث. أتفهمني؟»

«هل تُطالبني بألَّا أفعل شيئًا؟»

«لا تفعل أي شيء مهما حدث. سيكون هناك شيء بسيط سيُثير انزعاجك. لا تتدخل. سينتهي الأمر بدخولي المنزل. بعد ذلك بأربع أو خمس دقائق ستُفتَح نافذة غرفة الجلوس. أريدك أمام تلك النافذة.»

«حسنًا.»

«ستُشاهدني لأنني سأكون ظاهرًا بالنسبة إليك.»

«حسنًا.»

«وعندما أرفع يدي، هكذا، سترمي داخل الغرفة ما سأعطيه لك، وفي الوقت نفسه، ستصيح بأن هناك حريقًا. هل تفهمني؟»

«تمامًا.»

قال وهو يخرج لفافة طويلة تشبه السيجار من جيبه: «هذا ليس بالشيء الخطر. إنه صاروخ دخان تقليدي من النوع الذي يستخدمه السباكون، له غطاء بلاستيكي من

الناحيتين ليشتعل ذاتيًّا. ما ستقوم به سيَقتصِر على الآتي. عندما تَصيح بأن هناك حريقًا، سينتبه عدد من الناس. بعد ذلك ستذهب إلى نهاية الشارع، وسأَلحق بك في غضون عشر دقائق. أتمنى أن أكون قد أوضحت كل شيء.»

«لن أتدخل. سأقترب من النافذة لأشاهدك. وعند إشارتك سأرمي هذا الشيء داخل الغرفة، ثُم أصيح بأن هناك حريقًا وأذهب لانتظارك عند ناصية الشارع.»

«بالضبط.»

«يمكنك الاعتماد عليَّ إذن.»

«هذا ممتاز. أعتقد أنه ربما حان الوقت لأن أستعدَّ للدور الجديد الذي سألعبه.»

اختفى هولمز داخل غرفة النوم وعاد في غضون دقائق في هيئة قس بروتستانتي بسيط وودود. كان مظهره الذي يتكون من قبعة سوداء عريضة وسراويل ذات جيوب ورابطة عنق بيضاء وابتسامة متعاطفة، والمظهر العام الذي يُوحي بتحديق وفضول بريء لا يُضاهيه إلا السيد جون هير. لم يُغيِّر هولمز ملابسه فحسب، بل تعبيره وتصرفاته، وحتى روحه بدت كما لو كانت تتبدَّل مع كل دور جديد يقوم به. لقد خسر المسرح ممثلًا بارعًا، وخسر العلم مفكرًا فَطِنًا، عندما تخصص هولمز في حل الجرائم.

كانت عقارب الساعة تشير إلى السادسة والربع عندما تركنا شارع بيكر، وعندما وصلنا إلى جادة سيربنتاين كان لا يزال هناك عشر دقائق مُتبقية على تمام الساعة. كان المساء قد حلَّ بالفعل، وكانت المصابيح قد أنيرت للتوِّ، بينما كنتُ أتمشى ذهابًا وإيابًا أمام نُزُل بريوني في انتظار قدوم ساكنته. كان المنزل كما تخيَّلته بالضبط بسبب وصف شيرلوك الدقيق، لكن المكان كان أقل خصوصية مما ظنَنت. بل على النقيض؛ فقد كان شارعًا مليئًا بالحركة إلى حدٍّ كبير بالنسبة إلى ضيقه ووقوعه في حي هادئ. كانت هناك مجموعة من الرجال ذوي الملابس الرثَّة يقفون في إحدى زوايا الشارع يُدخِّنون ويَضحَكُون، ورجل يشحذ المقصات والسكاكين، وحارسان يُغازلان ممرِّضة، وبضعة شباب أنيقو الملبس يتسكَّعون ذهابًا وإيابًا ويُدخِّنون السيجار.

قال هولمز بينما كنا نتمشَّى أمام المنزل ذهابًا وعودة: «كما ترى فإن هذا الزواج يُسهِّل الأمور إلى حدٍّ ما. لقد أصبحت الصورة سلاحًا ذا حدَّين الآن. من المحتمَل أنها لا تريد أن يراها السيد جودفري نورتون مثلما لا يُريد عميلنا أن تراها أميرته. السؤال الآن هو: أين نجد تلك الصورة؟»

«بالفعل، أين؟»

«من المستبعَد أنها تَحملها معها؛ فمقاسها يناسب الخزانات ولا يمكن إخفاؤها بسهولة داخل فستان لكبر حجمها. هي تعلم أن الملك قادر على اختطافها وتفتيشها. لقد قام بمحاولتَين بالفعل. نستنتج إذًا أنها لا تحملها معها.»

«أين هي إذًا؟»

«إما في حوزة مصرفيها أو محاميها. احتمال مزدوج. لكني أميل إلى الظن بأنها لم تتركها مع أيٍّ منهما؛ فالنساء كَتومات بالفطرة، ويُحبِبن أن يخفين أشياءهن بأنفسهن. لماذا تتركها لغيرها؟ يُمكنها الوثوق في قدرتها على حماية مُقتنياتها، لكنها لا تستطيع إدراك النفوذ غير المباشر أو السياسي الذي يُمكن أن يُمارَس عليها. هذا إلى جانب أنه عليك أن تتذكَّر أنها عازمة على استخدامها خلال بضعة أيام. يجب أن تكون في متناول يدَيها. لا بد أن الصورة في منزلها.»

«لكن المنزل سُرِق مرتَين.»

«لم يَبحثوا بالطريقة المناسبة.»

«كيف ستبحث إذًا؟»

«لن أبحث.»

«ماذا إذًا؟»

«ستُريني إياها.»

«لكنها سترفض.»

«لن تَقدِر على الرفض. أسمع قعقعة إطارات. لا بدَّ أن عربتها وصلت. الآن نفِّذ ما أمرتك به حرفيًّا.»

وبينما كان يتحدث، لمعت النوافذ الجانبية للمركبة عند مُنعطَف الشارع. كانت عربة فاخرة صغيرة ذات أربع عجلات أخذت ترتجُّ حتى وصلت إلى باب النُّزُل. وبينما كانت المركبة تتوقف، اندفع أحد الرجال المتسكِّعين عند الناصية ليفتح الباب على أمل الحصول على بنس في المقابل، لكن مُتسكِّعًا آخر دفعه بعيدًا بمرفقه واندفع ناحية العربة ينوي القيام بالشيء نفسه. اندلع شجار حادٌّ وزاد من حدَّته تدخل الحارسين اللذَين انحازا لأحد الرجلين، بينما انحاز صاحب دولاب شحذ المقصات للآخر بالحمية نفسها. تطايَرت القبضات ووجدت المرأة التي كانت قد نزلت للتو من المركبة نفسها وسط مجموعة من الرجال المتصارعين الذين أخذوا يتبادلون الضرب بوحشية باستخدام الأيدي والعِصي. اندفع هولمز داخل المجموعة ليحميَها، لكنه بمجرد أن وصل إليها صرخ وسقط أرضًا بينما

تدفَّق الدم من وجهه بغزارة. عندما سقط هولمز أسرع الحارسان في اتجاهه، وبينما فر المتسكعون في الاتجاه المقابل، هُرِع عدد من الشباب الأنيق، الذين كانوا يُشاهِدون العراك بدون التدخل، لمساعَدة المرأة والرجل المصاب. كانت أيرين أدلر، كما سأظلُّ أدعوها، قد هُرعت لتصعد درجات سلم المنزل لكنها توقفَت أعلاه وقد رسم الضوء المنبعث من الردهة الحدود الخارجية لجسدها الفاتن وهي تلتفتُ نحو الشارع.

سألت قائلة: «هل تأذَّى السيد المسكين كثيرًا؟»

صاحت أصوات عدة: «لقد مات.»

صرخ آخر: «لا بل ما زال حيًّا، لكنه سيموت إذا لم تصحبيه إلى المستشفى.»

قالت امرأة: «إنه رجل شجاع. لقد كانوا سيَسرقون حقيبة السيدة وساعتَها لولا تدخله. إنهم أفراد عصابة خطرة. آه، إنه يتنفَّس الآن!»

«لا يمكنه البقاء ممددًا في الشارع. هل يُمكننا إدخاله إلى المنزل يا سيدتي؟»

«بالطبع. أدخلوه غرفة الجلوس. هناك أريكة مريحة. من هنا إذا سمحتم!»

حُمِل هولمز بروية وحذر إلى داخل نُزُل بريوني ومُدِّدَ في الغرفة الرئيسية بينما ظللتُ أتابع ما يحدث من مكاني من النافذة. أضيئت المصابيح لكن الستائر لم تُفتَح حتى أرى هولمز وهو مُستلقٍ على الأريكة. لا أعرف إنْ كان سيطر عليه وخز الضمير حينذاك بسبب ما يقوم به، لكني لم أشعر بمثل هذا الخزي من قبل في حياتي عندما رأيت المرأة الجميلة التي كنا نتآمر ضدها، أو العطف والرعاية اللذَين تعهَّدت بهما هولمز. في الوقت نفسه سيكون الانسحاب الآن من تنفيذ الدور الذي عهدَ لي به أقسى خيانة يمكن توجيهها إلى هولمز. تشجعتُ وأخرجت صاروخ الدخان من معطفي الطويل. وفي النهاية فكرتُ أننا لا نؤذيها بل نمنعها من إيذاء آخرين.

اعتدل هولمز جالسًا على الأريكة ورأيته يحرِّك يدَيه كمن يختنق وفي حاجة للهواء. هُرِعت خادمة لتفتَح نوافذ الغرفة. في اللحظة نفسها رأيته يرفع يده وفور إشارته رميتُ الصاروخ داخل الغرفة وصحتُ: «حريق!» لم أكد أنتهي من الصراخ إلا وصاح المُجتمِعون بالكامل سواء بملابس رثَّة أو أنيقة — سادة وسائسو خيول وخادمات — في صرخة جماعية «حريق!» انبعثت سحبٌ سميكة من الدخان في سماء الغرفة ثم خرجت من النافذة المفتوحة. لمحتُ ظلالًا مندفعة ثم سمعت صوت هولمز بعد لحظات من الداخل يُطمئنهم بأنه إنذار كاذب. انسللت من بين المحتشدين متجهًا نحو منعطف الشارع وفي خلال عشر دقائق سررتُ عندما رأيت يد صديقي تمسك بيدي لنبتعدَ عن الصخب والجلبة. سار

بسرعة في صمت لبضع دقائق قبل أن نَنحرف إلى أحد الشوارع الهادئة المؤدية إلى طريق إيدجوير.

قال هولمز: «لقد قمتَ بدورك على أفضل وجه ممكن يا دكتور. لا يُمكن أن يتم بأفضل من هذا. كل شيء على ما يرام.»

«هل الصورة بحوزتك؟»

«أعلم أين هي.»

«وكيف عرفت؟»

«هي مَن أرتني مكانها كما قلتُ لك.»

«ما زلت لا أفهم.»

قال ضاحكًا: «لا أريد أن أكون غامضًا. الأمر بسيط تمامًا. أنت خمنتَ بالتأكيد أن كل من في الشارع كانوا مشاركين في الأمر. لقد كانوا جميعًا متورطين طوال الأمسية.»

«خمنتُ هذا بشكل كبير.»

«عندما اندلع الشجار، كنت أمسك في راحة يدي قليلًا من الدهان الأحمر الرطب. اندفعت داخل العراك وسقطت ولطخت وجهي بيدي وأصبح منظري مثيرًا للشفقة. إنها خدعة قديمة.»

«يُمكنني استيعاب هذا أيضًا.»

«ثم حملوني داخل المنزل. كانت مضطرَّة لإدخالي — فما الذي يمكنها فعله خلاف هذا؟ — إلى غرفة الجلوس، وهي الغرفة نفسها التي شكَكتُ في وجود الصورة فيها. إما هذه وإما غرفة نومها. وكان عليَّ تحديد أيهما تحوي الصورة. أجلسوني على الأريكة وأشرت بأني أحتاج للهواء فاضطروا لفتح النافذة مما أتاح لك الفرصة.»

«وكيف ساعدك هذا؟»

«كان هذا أمرًا مهمًّا للغاية. عندما تظن امرأة أن منزلها يَحترق، فإنها تُهرع فورًا بشكل غريزي إلى حماية أهم شيء بالنسبة إليها. إنها غريزة لا يُمكن مقاومتها مطلقًا، وقد استغللتها من قبل؛ فقد أفادتني في فضيحة طفل دارلنجتون البديل وكذلك قضية قلعة أرنسوورث. تُهرع المتزوِّجة للإمساك بطفلها، بينما غير المتزوجة تسعى لإنقاذ صندوق مجوهراتها. الآن من الواضح لي أن سيدة اليوم لم يكن لديها ما هو أثمن مما نسعى وراءه، وأنها ستُهرَع لتُنقذَ الصورة. لقد نُفِّذَ إنذار الحريق ببراعة؛ فالصياح والدخان كانا كافيين لزعزعة أعصاب من الفولاذ. واستجابت هي بشكل رائع. كانت الصورة تقع في

تجويف وراء لوح متحرِّك فوق الحبل الأيمن للجرس. وصلت هناك في لحظة ولمحتُ جزءًا من الصورة وهي تخرجها. وعندما صرختُ قائلًا بأن الإنذار كاذب، أعادتها إلى مكانها ونظرت إلى الصاروخ ثم اندفعت خارجة من الغرفة ولم أرها منذ ذلك الحين. نهضتُ مُتصنِّعًا للأعذار ثم هربت من المنزل. ترددتُ بشأن ما إذا كان يجب أن أحاول الحصول على الصورة فورًا، لكن السائق كان قد دخل، وبينما كان يُراقبني عن كثب بدا من الأفضل الانتظار. ربما يُفسد المزيد من التعجل الأمر برمته.»

سألتُه: «والآن؟»

«لقد انتهَت مهمتنا عمليًّا. سأتصل بالملك غدًا وبك أيضًا إذا كنت مهتمًّا بالقدوم معنا. سنُدعَى للدخول إلى غرفة الجلوس لنَنتظرَ السيدة، لكن من المحتمل ألا تجدَنا أو تجدَ الصورة عندما تأتي للقائنا. ربما يكون من المُرضي لجلالته أن يستعيد الصورة بيديه.»

«ومتى ستتصل به؟»

«في الثامنة صباحًا. لن تكون مُستيقظة حينها، ولذا سيكون متاحًا أمامنا فرصة سانحة. هذا إلى جانب أن علينا أن نتصرَّف بسرعة؛ لأن هذا الزواج ربما يعني تغييرًا شاملًا في حياتها وعاداتها. يجب أن أرسل برقية للملك بدون تأخير.»

كنا قد وصلنا إلى شارع بيكر وتوقفنا عند الباب. كان هولمز يفتش في جيوبه بحثًا عن المفتاح عندما قال أحد المارة: «تُصبح على خير يا سيد شيرلوك هولمز.» كان هناك الكثير من الواقفين على الرصيف، لكن التحية كانت قادمة من شابٍّ نحيل يرتدي معطفًا طويلًا مرَّ مسرعًا.

ردَّ هولمز، وهو يُحدِّق النظر في الشارع المضاء بضوء خافت: «هذا الصوت مألوف لي. من يمكن أن يكون بحق الشيطان؟»

# الفصل الثالث

بتُّ تلك الليلة في شارع بيكر، وفي الصباح كنا نتناول التوست والقهوة عندما اندفع ملك بوهيميا داخلًا الغرفة.

صرخ وهو يُمسك بأحد كتفَي هولمز: «الصورة معك؟»

«ليس بعد.»

«لكن لديك أمل؟»

«نعم.»

«هيا إذن. لا أستطيع الانتظار لأرحل من هنا.»

«يجب أن نستقلَّ عربة.»

«لا، عربتي تَنتظِر في الخارج.»

«هذا يسهل الأمور.»

نزلنا وذهبنا مرة أخرى إلى نُزُل بريوني.

علَّق هولمز: «لقد تزوجَت أيرين أدلر.»

«تزوجت؟ متى؟»

«يوم أمس.»

«من؟»

«محامٍ إنجليزي يُدعى نورتون.»

«لكنها لا يُمكن أن تكون قد أحبته.»

«أتمنى أن تُحبه.»

«لماذا؟»

«لأن هذا سيُريح جلالتك من أي مضايَقات مستقبلية. إذا كانت تحبُّ زوجها، فهي لا تحبك. وإذا كانت لا تحبك فلا يوجد سبب يدعوها لإفساد خططك.»

«هذا صحيح. ولكن ... حسنًا، أتمنى لو كانت من مكانتي الاجتماعية نفسها! كانت ستُصبِح ملكة لا مثيلَ لها.» ثم غرق في صمت كئيب حتى وصَلْنا جادة سيربنتاين.

كان باب النُّزُل مفتوحًا، وكانت هناك امرأة عجوز تقف على عتَبات سلَّم النُّزُل. نظرت لنا بعين ساخرة بينما كنا ننزل من المركبة.

قالت: «سيد شيرلوك هولمز كما أفترض؟»

أجاب رفيقي: «أنا السيد هولمز.» بينما كان يُحدِّق فيها بنظرة مُتسائلة وفزعة لحد ما.

«بالتأكيد! لقد أخبرتني سيدتي بأنه من المحتمَل أن تأتي. لقد رحلت هذا الصباح مع زوجها على متْن قطار الخامسة والربع من محطة تشارينج كروس متجهَين إلى القارة الأوروبية.»

رد هولمز وهو يَرتدُّ للوراء بينما شحب وجهه من المفاجأة والحسرة: «ماذا؟! هل تعنين أنها تركت إنجلترا؟»

«ولن تعود أبدًا.»

سأل الملك بصوت أجشَّ: «والأوراق؟ كل شيء ضاع.»

ردَّ هولمز: «سنرى.» ثم اندفع مُتجاوزًا الخادمة إلى غرفة المعيشة وتبعتُه أنا والملك. كان الأثاث مبعثرًا في كل مكان وكانت الأدراج مفتوحة والرفوف مفككة كما لو كانت قد أفرغتها بسرعة قبل رحيلها. هُرع هولمز إلى حبل الجرس وأزاح لوحًا مُتحرِّكًا صغيرًا ثم أدخل يده ليخرج صورةً وخطابًا. كانت الصورة لأيرين أدلر مرتدية فستان سهرة وكانت الرسالة مكتوب عليها: «حضرة السيد شيرلوك هولمز. تُحفَظ حتى يتسلَّمها شخصيًّا.» فتحها صديقي وقرأها ثلاثتنا معًا. كانت مؤقَّتة بمنتصَف ليلة أمس وكانت تقول ما يلي:

**عزيزي السيد شيرلوك هولمز**

لقد قمتَ بالأمر بشكل مُتقنٍ تمامًا. لقد خدعتني تمامًا. لم ينتبني أي شكٍّ بعد إنذار الحريق. لكن حينها، عندما اكتشفتُ كيف خُدِعت، بدأت في التفكير. لقد حُذِّرت منك منذ بضعة شهور. لقد حذروني أنه لو استأجر الملك محقِّقًا سريًّا فسيكون أنت بالتأكيد. كما حصلت على عنوانك. ورغم كل هذا، فقد جعلتَني أكشف ما تريد أنت معرفته. وحتى بعد ما انتابني الشك، كان من الصعب أن أظن سوءًا في قس عجوز لطيف وطيب المعشَر، لكنني كما تعلم تدربت على

التمثيل، والأزياء الذكورية ليست جديدة عليَّ، وغالبًا ما أستغلُّ الحرية التي تتيحها. لقد أرسلت جون، السائق، ليُراقبك وصعدت الدور العلوي وارتديت ملابس التمشية كما أسمِّيها ونزلت فور رحيلك.

تبعتكَ حتى بابك وتأكدت من أنني كنتُ شخصية مثيرة لاهتمام السيد شيرلوك هولمز الشهير. ثم، بكل طيش وحماقة، تمنَّيتُ لك ليلة سعيدة وذهبت إلى المعبد للقاء زوجي.

ظن كلانا أن أفضل ما يُمكن القيام به عندما نتعرض لمطاردة خصم قوي مثلك هو الهروب، لذا ستجد عش الزوجية الخاص بنا فارغًا عندما تصل غدًا. وبالنسبة إلى الصورة، يمكن لموكلك أن يَطمئن؛ فأنا أحب رجلًا أفضل منه، وهو يُبادلني الحب. يمكن للملك فعل ما يريده دون أن يعترض طريقه شخص آذاه هو بشدة. أنا أحتفظ بالصورة لأحمي نفسي فقط وكسلاح يؤمِّنني من أي خطوات ربما يقوم بها الملك مُستقبلًا. لقد تركت صورة ربما يحبُّ أن يمتلكها. وأظل ممتنة لك يا سيد شيرلوك هولمز.

مع خالص تحياتي.

أيرين نورتون (أدلر سابقًا)

بعد انتهاء ثلاثتنا من قراءة رسالة أيرين، صاح ملك بوهيميا: «يا لها من امرأة! آه! يا لها من امرأة! ألم أخبرك كم هي سريعة التصرُّف وحاسمة؟ ألم تكن لتُصبحَ ملكة جديرة بالإعجاب؟ أليس من المُحزِن أنها لم تكن من مكانتي الاجتماعية نفسها؟»

ردَّ هولمز: «مما رأيته من هذه السيدة حتى الآن يبدو بالفعل أنها من مكانة مُختلفة تمامًا عنك. أعتذر لأني لم أنهِ الأمر على نحو أكثر نجاحًا.»

صاح الملك: «على العكس يا سيدي الفاضل. لا يُمكن أن يكون أكثر نجاحًا من هذا. أنا أدرك أنها لن تَخرق وعدها. الصورة الآن بأمانٍ كما لو كانت قد احترقت.»

«سعيدٌ لسماع هذا.»

«أنا مدينٌ لك بشدة. أخبرني من فضلك كيف يُمكنني مكافأتك.» ثم خلع خاتمًا من الزمرد الأخضر على شكل ثُعبان وحمله في راحة يده.

لكن هولمز قال: «جلالتك تَمتلك شيئًا أعتبره أكثر قيمة.»

«سمِّ ما تريد.»

«هذه الصورة!»

حدَّق الملك فيه مدهوشًا.

ثم صاح: «صورة أيرين! إذا كنتَ تريدها بالتأكيد.»

«أشكرك. إذًا لا يوجد المزيد لنقوم به بخصوص هذا الأمر. أتمنَّى لجلالتك نهارًا سعيدًا.» ثم انحنى هولمز وابتعد دون أن يلاحظ يد الملك الممدودة له وصحبَني في رحلة العودة إلى السكن.

كانت هذه هي قصة الفضيحة الكبرى التي هدَّدتْ مملكة بوهيميا، وكيف تفوَّق ذكاء امرأة على خطط شيرلوك هولمز، الذي اعتاد أن يَسخر من ذكاء النساء، لكني لم أسمعه مؤخرًا يقوم بهذا. وعندما كان يتحدث عن أيرين أدلر أو يشير إلى صورتها، كان دائمًا ما يتحدث عنها بكل توقير بلقب «المرأة».


هنداوي